فجر المعارف

انارةُ العقل مكسوف بطوع هوًى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

نورٌ مستعرضٌ في السماء يخطف الابصار بسرعة ويمضو. وصوت متردد الصعقات يصمُّ الآذان بشدة هزيمو. وشجرات باسقات من صغار البذور. وحشرات صادرات من رُفات القبور. وغيوم تطبق الجوّ. وسيول تفعم الدوّ. وشهب ثواقب وسحب سواكب. حوادث رآها الانسان من قديم الزمان وفتش عن عللها واسبابها بما فُطِر عليهِ من محبة البحث والتنقيب ولمَّا لم يهتدِ الى اسبابها الحقيقيَّة جرَّد لها اسبابًا ممَّا يقع في علمهِ واختبارهِ وسلَّط على الكون آلهةً من ابناء نوعهِ وبالغ في وصفهم وميَّزهم بمزايا الضواري والكواسر لكي يستطيعوا ان يأتوا بما نسب اليهم من القوَّة والبطش والحيلة والدهاء. واضطربت احوال العقل البشري لكثرة ما فرضهُ من الآلهة وتباين ما نسبهُ اليها من الصفات وما احسن ما قالهُ اوريبدس احد كبراء الاقدمين وهو "لا مجد في الدنيا ولا فلاح لان الآلهة تعبث بالامور كيف شاءت وتمزج الشيَّ بضدِّهِ لكي تزداد عبادتنا لها بسبب جهلنا وعدم تعقلنا للامور"

ولكن قام في كل عصر اناس فاقوا غيرهم في ذكاء العقل وتوقُّد الذهن فطرحوا نير التقليد وحادوا عن سنَّة الجمهور ونبذوا قيود الهوى والتمسوا للحوادث الطبيعيَّة اسبابًا طبيعيَّة لان العقل المستنير لا يطيق الاعتساف والمجازفة بل يتطلَّب ان يردَّ الحوادث المتفرقة الى شرائع عامَّة ويجمع الجزئيات تحت كليَّات شاملة لتعليل الحوادث بها ولذلك حاول الفلاسفة هذه الآلهة وابدالها بالشرائع الطبيعيَّة

وحالما شرع في تعليل الحوادث الطبيعيَّة رأى ان لا بدَّ له من معرفة طبائع الهيولى. فارتأى ان الاجسام كلها مؤلفة من دقائق صغيرة جدًّا هي جواهرها الفردة التي لا تتجزأ. وقد اشاع هذا الرأي فيلسوف صيداوي اسمهُ مخس وفصَّلهُ ديوقريطس الفيلسوف اليوناني. ولا بدع اذا سبق الفينيقيون واليونانيون غيرهم الى المباحث العلمية لان اهالي هاتين المملكتين انتقلوا سلك التجار قبل غيرهم فوسعوا اختبارهم ووفروا ثروتهم فامكنهم بعد ذلك الانقطاع عن الاعمال الى النظر في العلوم والفنون

ونشأ ديوقريطس قبل المسيح بخواربع مئة وستين سنة وورث مالاً وافرًا عن ابيهِ فحبسهُ على تهذيب عقلهِ وتوسيع معارفهِ فاكثر من الترحال في طلب العلم ودخل اثينا في عهد سقراط

وافلاطون وخرج منها بدون ان يعرفه احد. ولم يرضه ما رآه في سقراط من تنميق العبارة والاعتماد على الاحكام المنطقيَّة. وقال ان الرجل الذي دأبه تنميق الالفاظ والتسرُّع الى مناقضة غيره لا يصلح لتعلُّم الحكمة الحقيقية. ثم عاد الى بلاده وقد انفق ثروته كلها وألَّف كتابًا شهيرًا كان يقرأهُ على اهل بلاده علانيةً ووضع المبادئ الستة الآتية وهي

(١) لا شيءٌ من لا شيء والموجود لا يُعدَم. وكل تغيُّر سببهُ تركُّب الدقائق وانحلالها

(٢) لا يحدث شيء بالصدفة. ولكل معلول علَّة يلزم حدوثهُ عنها

(٣) لا يوجد الاَّ الجوهر والحيِّز الذي هو فيه وما سوى ذلك فتصورات محضة

(٤) الجواهر غير محدودة عددًا وغير محدودة شكلاً وهي تتصادم على الدوام ومن حركاتها تولدت العوالم

(٥) الاجسام تتنوع بتنوُّع جواهرها في العدِّ والحجم والتركيب

(٦) النفس مؤلفة من جواهر دقيقة مستديرة ملساء مثل دقائق النار وهي اشد الجواهر حركة فتخترق كل الاجسام ومن حركاتها تتولَّد ظواهر الحياة

ولا يخفى ان المبادئ الخمسة الاولى تنطبق على ما يُعرف الآن من شرائع المادة والمبدأ السادس اما ان يكون قد اراد به القوة العصبيَّة او القوة الحيويَّة عينها والارجح انهُ اراد الثاني ومذهبهُ هذا يشبه مذهب الماديين من اعتبارت كثيرة. ولكنهُ لم يحاول ان يفسر كيفية اتفاق دقائق الجسم بعضها مع بعض وموافقتها لاحوال الحياة وهذا الامر تعرَّض لهُ الفيلسوف اميدُقليس وارتأى انهُ يوجد شيء من المحبة والبغضة او التجاذب والتنافر بين الدقائق. وقال ان التراكيب المناسبة لغاياتها او للاحوال التي هي فيها تبقى وغير المناسبة تزول. وهذا هو نفس مذهب "بقاء الانسب" الذي ذهب اليهِ علماء هذا الزمان بعد اميدُقليس باكثر من اثني عشر سنة وأيَّدوهُ بما لا يحصى من الادلَّة

ثم قام ابيقورس[1] ودرس مؤلفات ديموقريطس وطاف بلدانًا كثيرة وعاد الى اثينا وجمع حولهُ جمهورًا من الطلبة وكان يشرح لهم غوامض الحكمة ومن اول اغراضهِ نزع الاوهام والخرافات من عقولهم وعلَّم جهارًا ان الحوادث الطبيعية تجري تبعًا لنواميس ثابتة والآلهة لا تتعرَّض لها. وكان اعتقادهُ بالآلهة ضعيفًا جدًّا فلم يرجُ لها ثوابًا ولم يخشَ منها عقابًا وعدَّ الكفر بها تدينًا

وبعد ابيقورُس بقرنين قام لقريتيوس[2] الروماني ونظم قصيدتهُ المعنونة "بطبيعة الاشياء"

(١) ابيقورس ولد سنة ٣٤٢ ق.م

(٢) لقريتيوس ولد سنة ٩٩ ق.م

وقال ان الناس يرون حوادث الطبيعة فيخافون منها لزعمهم ان الآلهة ارسلتها في مقدمة الخراب والدمار ولا يتوقعون بعدها الاَّ الهلاك الابدي فيزيد خوفهم خوفًا ولا سبيل لنزع هذا الخوف الاَّ بتعليمهم ان كل ما يحدث في الكون انما يحدث جريًا على نواميس الطبيعة الثابتة فليس هو دليلاً على العقاب ولا على الثواب وما اصدق هذا القول على كل ما كان الكهّان ومن حذا حذوهم يخوفون العامّة به ويدّعون انهُ دليل على غضب الله مما قيل فيهِ انهُ

تخرُّصٌ واحاديثُ ملفقةٌ ليستْ بنبعٍ اذا عُدَّت ولا غَرَبِ

ولكن لقريتيوس لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزهُ الى انكار كل قوة فائقة الطبيعة وقال ان في الجواهر قوة تتركب بها بعضها مع بعض من نفسها على ضروب لا تحصى فما كان منها موافقًا للاحوال الذي هو فيها بقي وما كان منها مخالفًا انحلَّ وتركب ثانيةً وهلم جرًّا . وقد بلغت النظام الحاضر بعد ان تركّبت على ضروب لا يحصى عددها . ومثّل على افعال الجواهر وهي غير منظورة بافعال الهواء حينما يعصف زوابع فان دقائقهُ غير المنظورة تفعل فعل الماء المنظور وقال اننا نشمُّ روائح الاجسام بالدقائق التي تنبعث منها الى انوفنا . ومثّل على حركة الدقائق على حين يُرى الجسم ساكنًا بقطيع غنم يُرى عن بُعد ساكنًا وحلانهُ دائمة التحرُّك . والظاهر ان ما ذكرهُ عن الجواهر الفردة هو الذي ارشد العلاَّمة كنت الى شرح الرأي السديمي الشائع الآن

وقام قبل ديموقريطس فيثاغورس الفيلسوف ووضع العلوم الرياضية ومبادئ علم الايقاع وقام بعدهُ اقليدس وارخيمدس وكتب الاول منها كتاب الاصول الهندسيَّة وشرح الثاني مسألة المخل واحكام المسائلات . وظهر هبّرخس وبطليموس ووسّعا نطاق علم الفلك . وانبعثت مدرسة الاسكندرية وعُنيت بتشريح الحيوانات وتأسيس علم الطب على دعائم ثابتة فنزع العلماء عن الحدس والتخمين واعتمدوا على الامتحان والاستقراء وانتظروا بزوغ شمس المعارف فلم يروا الاَّ ظلمات بعضها فوق بعض غطَّت السماء والارض ونشر ليل الجهل سرادقهُ في آفاق المشرق والمغرب . وما زالت الظلمات تزيد حلكًا الى ان ظهر الاسلام وضمَّ تحت لوائهِ العرب والروم والفرس ودوَّخ بهم المعمورة . ثم قام الخلفاء وجمعوا كتب اليونان والسريان والهنود وترجموها الى العربية وعنوا ببناء المدارس واجازة العلماء ودرس العلوم الطبيعية فاكتشف علماء العرب انكسار النور في الهواء وعرفوا ان كثافة الهواء تقلُّ بالصعود فعينوا علوَّ ثمانية وخمسين ميلاً ونصف . وعرفوا النسبة بين السرعة والوقت والبَيْن في سقوط الاجسام واستخرجوا الثقل النوعي لكثير من الاجسام المعروفة الى غير ذلك من الاكتشافات العلمية ولكن اصاب علماء المسلمين ما اصاب علماء المسيحيين من قبلهم ذلك انهم اعتمدوا على فلسفة ارسطو الواهنة في احكامها الطبيعية

لان ارسطو لم يعتمد في تعليل الحوادث الطبيعية على الاسباب الآلية بل على الفروض الوهمية ووضع الكليّات وضعًا وانّصل منها الى تعليل الجزئيات فمن جملة كلياته التي لا يمكن ان يقام عليها دليل منع ان العالم كرة متصلة والارض قائمة في مركز وان الفراغ محال وان انواع الحيوانات يلزم ان تكون عددًا محدودًا وكذلك اعضاؤها يلزم ان لا تجاوز عددًا مفروضًا . ومن جملة جزئياته التي ارتكب فيها الشطط ان القلب لا يخفق الاّ في الانسان وان الجانب الايسر من الانسان ابرد من الايمن وان اسنان المرأة اقل من اسنان الرجل ونحو ذلك مما يطول شرحهُ فهذه الفلسفة التي اعتمدها حكماء العرب مع ما وقع في مما لكهم من التحزّب والتقسّم قلّصت عنهم ظلّ المعارف بعد ان كان وارفًا وعادت ظلمات الجهل تتراكم وتتكاثف ونير التقليد يضيّق على الاعناق الى ان ضاقت الصدور عن النفوس فظهر نابغة عصره العلاّمة كوبرنيكس والّف كتابهُ في الهيئة الجديدة فداس تعليم ارسطو القائل بان الارض في مركز الكون وقلّل ثقة الناس بهِ . وكان كوبرنيكس من خدمة الدين ولبث ثلاثًا وثلاثين سنة يبحث في الهيئة الجديدة حتى اهتدى الى حقيقتها ونشر كتابهُ في اواخر ايامهِ وذلك سنة ١٥٤٣ . وقام بعدهُ برونو الفيلسوف الايطالي وهو راهب دومينيكي وذهب مذهب لوقريتيوس في ان اشكال المواد المختلفة هي نتيجة القوة الكامنة في نفس الهيولى تحكم عليهِ بالهرطقة وسُجن مدّة ثم أُميت حرقًا في السادس عشر من فبريه (شباط) سنة ١٦٠٠ ومقتله اجبر غاليلو على انكار دوران الارض حول الشمس . ثم قام كبلر ولم يخشَ السلطة التي حكمت على برونو وغاليلو لانهُ جرماني فاكتشف نواميس الحركة التي تتحرك بها السيّارات واعدّ الطريق للفيلسوف اسحق نيوتن

وقام في القرن السابع عشر فيلسوفان عظيمان وهما باكون الانكليزي وديكارت الفرنساوي واختلفا في طريقة الاستدلال التي اتبعاها فباكون كان يعتمد على الاستقراء اي الاستدلال من الجزئي على الكلي وديكارت كان يعتمد على القياس وهو الاستدلال من الكلي على الجزئي . ولكن "انارة العقل مكسوف بطوع هوًى" فان ديكارت بتلاعب سوء عقلهِ استدلّ على انهُ موجود بقولهِ "انا افتكر فلذلك انا موجود" ولا يخفى ان مقدمة هذا القياس ليست اقرب الى التسليم بها من نتيجتهِ بل ان كليتهما في درجة واحدة من الاحتمال . وانكر الجوهر الفرد مخافة ان يفرض وجود شيء لا يستطيع الباري سبحانهُ على قسمتهِ ولكنهُ ذهب الى ان الاجسام العضوية مؤلفة كلها من دقائق صغيرة مستديرة وشظايا خفيفة . ورسم لنفسهِ آلة تدور بالماء وتتمّ فيها على ظنهِ كل اعمال الهضم والتغذية والنمو والتنفس . وضرب ان القلب وتتأثر بالمؤثرات الخارجية بواسطة آلات فيها كالحواس وتحفظ اثر المؤثرات بما فيها من التصوُّر والذاكرة وقال ان كل حركات هذه الآلة وافعالها العضليّة

تولّى ادارة اعمال الري في غياب الموسيو ولكوكس بالاجازة مدة اربعة اشهر فأدار اعمال التفتيش ادارة حسنة . وقد بعث الينا مفتشو الري باسماء المهندسين الذين تحت ادارتهم يمتحنون الثناء على الخدامات التي أدّوها وهؤلاء هم علي افندي النجار باشمهندس القليوبية وصبري بك باشمهندس الترعة الاسماعيلية واحمد افندي سعيد باشمهندس الشرقية وزاهر بك باشمهندس المنوفية وخورشيد افندي وهبي ملاحظ ورشة القناطر الخيرية وحسن افندي راغب مهندس بمكتب تفتيش ري القسم الثاني واحمد افندي حسني معاون اول هندسة المنوفية وحسن افندي كامل معاون ثاني الهندسة المذكورة ومحمد افندي منجي معاون اول هندسة الغربية ومحمد افندي فهمي معاون ثاني الهندسة المذكورة ومحمد افندي مهيب معاون ثالث الهندسة عينها وعلي افندي برهان باشمهندس البحيرة ومحمد افندي طلعت باشمهندس قسم ثاني الغربية ومحمد افندي نجيب باشمهندس المنيا

هذا واني أحقّ الثناء على رؤساء خدمة الادارة بنظارة الاشغال العمومية فانهم قد بذلوا ما في وسعهم لموازرتي في كل ما من شأنه نجاز الاعمال وتسييرها . نعم ان قلم القيودات ينقصه مراحل للكمال لكنّ اعماله الآن اضبط كثيرًا من ذي قبلُ . واني اخصّ بالذكر في هذا المقام جناب الموسيو باروا سكرتير عموم النظارة فانهُ منذ دخولهِ فيها لم يألُ جهدًا عن معاونتي بغاية الصداقة والمحبة فاني لم استرشدهُ مرةً في امرٍ الاّ رأيتُ رأيهُ سديدًا نافعًا حتى اوجب عليّ في ذلك مزيد الشكر . ونسأل الله عزّ وجلّ حسن الختام فهو حسبنا ونعمَ المسؤل . حُرّر بالقاهرة لاربعٍ وعشرين خلَت من شهر يونيو سنة ١٨٨٦

اسكوت منكريف

وكيل نظارة الاشغال العمومية

اختلاط ذهنٍ هستيري

قد اطلعنا في العدد الاخير من الثناء الاغر على مقالة لحضرة مؤلفهِ الفاضل الدكتور شبلي افندي شميل تحت هذا العنوان ذكر فيها حادثة هستيرية غريبة في بابها دامت نحو سبعين يومًا . انقطع فيها صاحبها عن الطعام انقطاعًا تامًّا ثمانية عشر يومًا ولم يتناول في سائر الايام الاّ اليسير جدًّا من اللبن وزعف فيها سبعًا وثلاثين مرّة نزف فيها دم كثير وكان له وجدانان مختلفان متناقضان وكان يتكلم في نومهِ وفي اختلاط ذهنهِ وينبيء بامور كثيرة تتعلق بهِ والمهمّ لنا منها ثلاثة احدها ذكرهُ وقائع حياتهِ قبل المرض وفي حينهِ بكل تدقيق وثانيها معرفتهُ الاوقات بالساعات والدقائق بدون النظر الى ساعة وقد تحققنا ذلك بنفسنا ايضًا ومعرفتهُ البقرة ولونها وعمر مولودها